مدينة مليانة حاضرة المغرب الأوسط في العصر الوسيط من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب

د/- بشير مبارك
المركز الجامعي - تيبازة

الملخص:

إنّ موضوع مدن المغرب الأوسط من بين المواضيع التي لاقت اهتماما واسعا لدى الباحثين، حيث اهتموا بالكتابة عن مجموعة منها خلال العصر الوسيط كتلمسان، وبجاية، وقسنطينة، وفي المقابل نجد بعض المدن لم تلق نفس الاهتمام وفي مقدمتها مدينة مليانة.

اعتبارا لذلك كان موضوع مدينة مليانة هو محور دراستي هذه الموسومة بـ:" مدينة مليانة حاضرة المغرب الأوسط في العصر الوسيط من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب". خلال هذه المداخلة سأتطرق إلى تاريخ وحضارة مجتمع مدينة مليانة خلال العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية:

مليانة؛ المغرب الأوسط؛ مكنانة؛ الرحلة؛ المدن؛ الحواضر.

Abstract:

The theme of the cities of Central Maghreb is one of the topics that has attracted wide interest among researchers, Where they were interested in writing about a group of them during the Middle Ages such as: Tlemcen, Bejaia, Constantine, In contrast, some cities did not receive the same attention, especially the city of Meliana.

As a result, the theme of the city of Meliana was the focus of my studies "The city of Maliana, the capital of Middle Maghreb in the Middle Ages through the books of travelers and Arab geographers, During this intervention, I will touch upon the history and civilization of the city of Melina during the Middle Ages .

key words: Miliana; Central Maghreb; the journey the cities; the urban.

المقدمة:

عرف الإنسان الرحلة [1] عن طريق الفطرة منذ هبوط آدم وحواء على الأرض ليعمروها بالتناسل، ويعبدون الله، وينتشرون فيها بحثا عن متطلبات الحياة- مصادر المياه- خاصة، فقد قيل قديما:" ولد الإنسان راحلا". إنّ هذا القول يصدق على المسلمين أيام عزّهم، حيث كانوا يرتحلون كثيرا وذلك بسبب اتساع مملكتهم وتطور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، فكان لهم شغف كبير بالحل والترحال وحب المعرفة والاطلاع والمغامرة والاغتراب، وكانت أهداف رحلاتهم تختلف من شخص لآخر، إما لطلب العلم، وإما للاستطلاع، وإما للسفر، وإما للحج، فاشتهر منهم في هذا المجال المغاربة والمشارقة، فظهر بذلك ما يسمى "بأدب الرحلة" مشكلا أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر.

هؤلاء الرحالة جابوا الأرض طولا وعرضا متحدّين الأهوال والمخاطر، وسجّلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت انتباههم وما أثار فضولهم وانطباعهم، فصوَروا البلاد والعباد وتفانوا في جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والحضارية [2] الخاصة بالبلاد المجاورة والبلاد البعيدة كالصين، والهند، وبلاد ما وراء النهر وغيرها.

لقد أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال، إذ أسهمت كتاباتهم في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وألقوا الضوء على تاريخها وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، وساهموا في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وأثاروا الاهتمام بها، وشجعوا المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها.

إنّ كل ما صوّره هؤلاء الرحالة، قيّد في كتب خاصة سميت بكتب الجغرافيا والرحلات، هذه الأخيرة ذكرت مواقع وأسماء وخصائص العديد من المدن الإسلامية والعربية.

إذ تعتبر المدينة نقطة للتركز السكاني وكذا تركز الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية بمختلف أنواعها، وتعود نشأتها إلى عدة عوامل بشرية وسياسية ودينية وحتى اقتصادية، وبعيدا عن هذه الأسباب فالعامل الجغرافي يلعب دورا هاما في اختيار مواقعها لإمكانية توسعها مستقبلا.

لقد اهتمت الدراسات والأبحاث بالتاريخ الحضري، معتمدة في ذلك على كتب الجغرافيا والرحلة باعتبارها مصدرا هاما من مصادر تاريخ المدن عبر مختلف الحقب التاريخية، فهذه الكتب نقلت لنا معلومات كثيرة عنها خاصة المدن الإسلامية منها، ومن أشهر هؤلاء الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين نذكر:ا بن جبير صاحب كتاب:" رحلة ابن جبير"، والإدريسي صاحب كتاب: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وابن بطوطة صاحب كتاب:" رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وغيرهم .

لقد أخذت عديد مدن المغرب الأوسط حظا وافرا من تلك الكتابات، فأفاض الرحالة والجغرافيون في وصفها وذكر مواقعها ومميزاتها.

;يعد موضوع مدن وحواضر المغرب الأوسط من بين المواضيع التي لاقت اهتماما واسعا وكبيرا لدى الباحثين والمؤرخين، حيث اهتموا بالكتابة عن مجموعة منها خلال العصر الوسيط مثل: تلمسان، وبجاية، وقسنطينة وجزائر بني مزغنة، لكن في المقابل نجد بعض المدن التاريخية لم تلق نفس الاهتمام وفي مقدمتها مدينة مليانة، إذا ما استثنينا ما كتبه عبد الرحمن الجلالي في كتابه الموسوم بـ " تاريخ المدن الثلاث المدية الجزائر ومليانة".

اعتبارا لذلك كان موضوع مدينة مليانة هو محور دراستي هذه الموسومة بـ:" مدينة مليانة حاضرة المغرب الأوسط في العصر الوسيط من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب ". وخلال هذه الدراسة سأتحدث عن تاريخ وحضارة مجتمع مدينة مليانة خلال الفترة الوسيطة.

تتمحور الإشكالية التي تطرحها الدراسة في: مدينة مليانة بالمغرب الأوسط للبحث في: خصائص مدينة مليانة في العصر الوسيط، وللإجابة عن هذه الإشكالية يترتب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية أهمها: ما أصل تسمية المدينة؟ ما طبيعة معالمها الجغرافية؟ من أسّس المدينة؟ - ما هي مكونات مجتمع المدينة؟ وما طبيعة نشاطاتهم؟ فيما تكمن أهمية المدينة؟ ما هو واقع الحياة العلمية فيها؟

أسئلة تطرح نفسها بإلحاح في هذه الدراسة، وللإجابة عن إشكالات البحث وتساؤلاته كان لا بد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التي تناولت الموضوع أو طرقته في إحدى جوانبه، خاصة منها كتب الجغرافيا والرحلات.

إنّ ما يلاحظ على الأوصاف الجغرافية التي قدّمها الجغرافيون الأوائل لبلاد المغرب اتسمت بالنقص، ذلك أنّهم لم يكونوا يعرفون عن المغرب الأوسط إلا القليل، فما عدا إفريقية التي تمكّنوا من معرفة مسالكها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وشبكتها العمرانية بصفة جيدة، امتازت أوصافهم لباقي جهات المغرب بالشمولية فهم يرون البلاد مناطق شاسعة قطنها البربر، ولا يهتمون إلا من حيث دخولها للإسلام، حتى أن البعض في وصفه تجده يخلط بين المدن الجزائرية والتونسية كابن خرداذبه مثلا لم يكن يعلم الكثير عن مدن المغرب الأوسط ولا جغرافية مسالكها[3]، لكن الجغرافيين الذين جاؤوا بعده وضعوا أدب جغرافي هام، وزوّدوا من يهتم بأمور

المغرب الأوسط بالكثير من المعلومات، المفيدة حوله [4]، لكن رغم ذلك تبقى المعلومات حول مدنه شحيحة جدا مقارنة بالمناطق المجاورة كمدن المغرب الأدنى أو المغرب الأقصى .

إنّ التاريخ المحلي أصبح من أهم فروع الدراسات والأبحاث الحديثة والمعاصرة، وعلى اعتبار منطقة مليانة سجّلت حضورها القوي في تاريخ الجزائر بمختلف حقبه، فهي جديرة بالاهتمام والدراسة، فالمدينة بحكم موقعها الجغرافي، واعتدال مناخها، وتوفر المياه، شكلت موطنا للاستقرار البشري منذ القدم، بداية من العصر الروماني مرورا بالعصر البربري وصولا إلى العصر الإسلامي، فهذه المدينة عرفت تجمعات بشرية خلال مختلف الحقب التاريخية، شارك أهلها بفاعلية في صناعة تاريخ الجزائر، خاصة خلال العصور الوسطى، وهذا ما سنوضحه في هذه الدراسة المتواضعة .

01- أصل تسمية مليانة:

إنّ الدراسات والكتابات التاريخية القديمة والحديثة، تختلف اختلافا واضحا في أصل الكلمة واشتقاقها، لذلك سأعرض كل ما وقع بين يداي من نصوص، محاولا إزالة اللبس الحاصل حول أصل تسميتها. فياقوت الحموي نجده يذكر تقريبا الاسم المتداول حاليا لكن من دون تاء فيقول: "مليانة بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة، وبعد الألف نون، مدينة في آخر افريقية ..."[5]. أما ابن حوقل والبكري فنجدهما يذكران اسمها كما هو متداول اليوم أي – مليانة-. لكن الحسن الوزان نجده يخالف الجميع حين يذكر أنّ اسمها "مكنانة"، ثم يشير إلى أن العرب هم من حرّفوا الاسم لمليانة فيقول:" ومدينة مليانة مدينة كبيرة جدا وقديمة بناها الرومان وأطلقوا عليها مكنانة، لكن العرب حرّفوا هذا الاسم لمليانة"[6] .

إن الاختلاف الموجود في الكتابات القديمة وجد كذلك في الكتابات الحديثة والمعاصرة، حيث تذكر البعض منها أنّ الحفريات التي أجريت بالقرب من المدينة أواخر القرن (13هـ/19م)، أكدت على وجود مدينتان هما منليانة وزوقبار، وجاء ذكر اسم مليانة في سجل المحاضرة الأسقفية بقرطاجة عام(489 م) حيث ورد اسم أحد أساقفتها مليانة فكتور، وكشفت بعض التنقيبات على قبر قرب المدينة عام (1265هـ/1849مـ) حمل اسم منليا بنت لوكسيوس"[7]، ويقول الحاج صادوق في دراسته بأن هذه الأسماء المتشابهة توحي بأن أصلها لاتيني روماني، لكن اسمها يطلق على فرع من قبيلة بربرية في ناحية بني مندل جنوب الأصنام في قصر بربري يحمل اسم قصر مليانة من قصور توات، وفي رأيه أن أصل الكلمة بربري[8]، أما المؤرخ الإسباني مارمول فقد سماها مليان، وقال أنها قديما سميت منيانة، والمؤرخ شاو الإنجليزي يقول: " منيانة ومليانة" وذلك بناء على النطق المحلي، أما عند بعض العارفين من سكان المدينة فيرى أنّها مشتقة من "ملآنة" لما في الناحية من خيرات[9]، وبما أن بلكين بن زيري الصنهاجي مؤسسها فمن المحتمل أن قبيلة مليانة من بني هندل الصنهاجية التي استقرت بالمنطقة سميت باسمها مليانة[10] .

وبناء على ما سبق ذكره من آراء وروايات، يجد الباحث نفسه تائها وهو يريد تحديد وضبط اشتقاق لفظة "مليانة" نظرا للكم الهائل من الروايات المتوفرة، لكن رغم ذلك يمكن الركون إلى القول: أن أصل مليانة لاتيني روماني، محرف إلى مليانة الحالية.

تعتبر مليانة[11] من أبرز مدن المغرب الأوسط في العصر الوسيط الإسلامي، فذكرت بعض الدراسات أن موقع زوكبار (Zuccabar) الذي عمّره الأمازيغ في البداية وغزاه الرومان فيما بعد، هو المكان الذي أعاد فيه المسلمون بعد الرومان تأسيس مدينة مليانة في القرن العاشر ميلادي، ومن ذلك الحين تم تحويل اسم مليانة عقب اندثار مستوطنة مليانة (Manliana)[12].

02- المعالم الطبيعية والجغرافية لمدينة مليانة:

ذكرها الحسن الوزان في مملكة تلمسان وضمن مدن إقليم بني راشد[13]، قائلا: "مدينة كبيرة أزلية قديمة في آخر إفريقية بناها الرومان وأطلقوا عليها ماكنانة"، ثم حرّفت إلى مليانة كما ذكرنا ذلك سابقا، جدّدها زيري بن مناد وأسكنها بلكين[14]، ومليانة بلدة خصيبة مجموعة مختصرة[15] محاطة بأسوار عالية عتيقة[16]، تقع في جبل على بعد أربعين (40) ميلا من البحر -أي عن شرشال- وهي بذلك تشرف على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنوا وارفين وغيرهم[17]، محاذية لمدينة تنس[18]، بينها مسافة أربعة أيام[19]، وقيل بينهما في البر مرحلتان[20]، ومنها إلى الخضراء (عين الدفلى حاليا) مرحلة[21]، وعلى مرحلة منها يوجد سوق كران الحصن الأزلي[22]، ويحدها من الجنوب الجبل المسمى وانشريس، بينها وبينه ثلاثة أيام، وقال البعض بينهما مسافة ثلاثة أميال[23]، ومنها إلى كزماية مرحلة وهو حصن له مزارع وأسواق على نهر شلف، وبين مليانة وتاعرت[24]، ثلاث مراحل[25]، وتجاورها منطقة تسمى بسوق كرام على نهر شلف[26]، وهنا ربما المقصود بها سوق كرام كما ذكر ذلك عند ابن حوقل، وبالقرب منها تقع قرية ريغة من وانشريس[27]، أما البعض فيجعلها ضمن أحواز أشير" مليانة في أحواز أشير من أرض المغرب بين تنس والمسيلة وبالقرب نهر الشلف..."[28] .

من خلال ما سبق ذكره حول موقع المدينة ومعالمها ، تتبين لنا الأهمية الإستراتيجية لها من الناحية السياسية أولا، حيث كانت منطقة مهمة تصارعت حولها مجموعة من الكيانات السياسية بالمغرب الإسلامي، ويظهر ذلك من خلال الصراع المحتدم الذي وقع بين ابن غانية والموحدين من جهة، والحفصيين، والمرينيين، والزيانيين من جهة أخرى كما سنرى ذلك لاحقا، ثم من الناحية الاقتصادية ثانيا، فوقوعها في منطقة الوسط وتوفرها على العيون والآبار والأنهار أهّلها لتكون من أبرز مناطق التجمعات السكانية في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط .

03- العناصر البشرية بالمدينة:

إنّ كتب الجغرافيا والرحلات لا تذكر الكثير عن العناصر البشرية التي استقرت بمدينة مليانة، حيث نجدها تكتفي بذكر بعض القبائل البربرية فقط، أما العنصر العربي فأغفلته تماما، وعموما تعتبر قبائل صنهاجة، وبطونها من بين أبرز المستوطنين بها، باعتبار المدينة اختطّها وأعاد تجديدها زيري بن مناد الصنهاجي وأسكنها بلكين، كما ذكرت ذلك النصوص:"مليانة ... جدّدها زيري ابن مناد وأسكنها بلكين"[29]، وأبرز تلك البطون –بطون صنهاجة- بطن بنوا وارفين الذي أشرف على تلك المنطقة[30]، وبطن تلكاتة قوم زيري بن مناد كانوا بالقرب من المدية[31]، علما أن النصوص لا تذكر استقرارها بمليانة صراحة، فذكرنا ذلك بحكم قرب المدية من مليانة، وباعتبار المنطقة قريبة من جبل وانشريس فلا يستبعد نزوح قبائله البربرية نحو المدينة واستقرارها بها كمكناسة، وأوربة، ومطماطة[32].

وتذكر بعض الدراسات أن سكان المدينة في البداية كانوا من العلويين وبعض الأسر البربرية المستقرة بضواحي المدينة، قبل أن يدخلها الصنهاجيون[33]، ولا يستبعد كذلك استقرار مغراوة بمليانة باعتبار أن مواطنها كانت بالمغرب الأوسط ممتدة من الشلف إلى تلمسان، وبطون هؤلاء كثيرة نذكر منهم: بنو ورسيفان، وبنو ورتزمان، وبنو يلنت، وبنو بوسعيد، كلهم بالشلف [34]، وما يؤكد استقرارر مغرا وة بمليانة قول ابن خلدون لما يذكر تغلب الحفصيين على مليانة وعقدهم لابن منديل أمير مغراوة عليها[35]، إضافة إلى بنو توجين كانت مواطنهم من ونشريس إلى المدية[36] .

وأما العنصر العربي بمدينة مليانة فلا يستبعد دخوله مع العرب الفاتحين ثم مع الهجرات الهلالية التي اجتاحت منطقة المغرب الأوسط، ومصادر الجغرافيا والرحلات التي اعتمدنا عليها في بحثنا لم تذكر شيء عن العنصر العربي بالمدينة، لذلك لجأنا إلى بعض

المصادر والدراسات التي غطت العجز الحاصل في كتب الرحلة والجغرافيا، لتحديد القبائل العربية التي استوطنت بمليانة.

فتذكر تلك النصوص أن القبائل العربية التي استقرت بالمدينة من الطبقة الرابعة (العرب المستعجمة) من قبائل بني هلال، ومن هؤلاء نذكر قبيلة هبرة العربية من قبائل مالك نزلت بسهول غرب مليانة[37]، ونزل أيضا أولاد عقبة بجهة مليانة[38]، ولا يستبعد نزوح بعض القبائل المستقرة بالمناطق المجاورة كالثعالبة، وجندل، والعطاف، وحصين إلى مليانة، خاصة إذا ما علمنا أن العرب معروفين بالحل والترحال أو ما يسمى بحياة الظعن .

04- الجانب الحضاري لمدينة مليانة:

أ – المؤهلات الاقتصادية:

لقد توفرت مدينة مليانة خلال العصر الوسيط على مؤهلات اقتصادية هامة، حيث وجدت بها آبار وأنهار تطحن عليها الأرحاء[39]، كما كان لها حظ من نهر شلف[40]، أما جبل زكار المحيط بها فهو مليء بالعيون[41]، ووجدت بها مزارع كثيرة خصبة[42]،وهي ذات أشجار[43]، وجناتها تسقى من نهر شلف، ولها أرحاء على نهرها المذكور[44]، ويذكر صاحب الروض المعطار في حديثه عن تلمسان اسم أحد أوديتها فيقول: " تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وحد المغرب الأوسط من واد يسمى مجمع وهو في نصف الطريق من مدينة مليانة إلى أول بلاد تازا..."[45]، هذا ما جعل كثيرا من سكانها يشغلون الفلاحة[46].

ب- واقع النشاط الاقتصادي:

إنّ هذه المؤهلات انعكست إيجابا على الزراعة فكثرت المنتجات وكان مردودها وفيرا، وسهلها الكبير عرف بإنتاجه الفلاحي الغزير، وكانت مليانة غنية بأشجار الجوز، الذي كان لا يباع ولا يشترى ولا يقتطف حتى [47]، وهذا يدل على كثرته، كما زرع بها التين والحبوب بمختلف أنواعها [48].

إن نشاط سكان مدينة مليانة لم يقتصر على الزراعة فقط، بل زاول بعضهم مجموعة من الحرف والصناعات حسبما ذكرت لنا النصوص، فمارسوا صناعة النسيج، والخراطة، وصنعوا أواني خشبية لتوفر مادتها الأولية المتمثلة في الغابات الكثيفة المحيطة بالمدينة، يقول الحسن الوزان:".. يكاد يكون سكانها كلهم صناعا، نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني من خشب..."[49] .

لقد انعكس ازدهار النشاط الزراعي والصناعي بالمدينة إيجابا على التجارة، فوجد بالمدينة سوق عرضت فيها مختلف المنتجات، وفد إليه سكان البلدات المجاورة لبيع مختلف منتجاتهم أو اقتناء المنتجات المحلية لمليانة، عرف هذا السوق باسم" سوق جامعة"[50]، كانت تعقد يوميا لكثرة الوافدين عليه [51]، وكثرة الوافدين على سوقها وزيادة النشاط التجاري، أدى إلى تأسيس أسواق بالمدن المجاورة التي ذكرتها لنا المصادر الجغرافية، كسوق ريغة الذي كان يعقد كل جمعة [52]، وسوق كران [53]، وأسواق حصن كزماية[54] .

وازدهار التجارة بالمدينة انعكس إيجابا على حياة السكان – الرفاهية-، حيث تفننوا في تزيين وتشييد منازلهم، فدورهم كانت متقنة الصنع تضمنت سقايات جميلة [55]، وبني في المدينة جامع متقن الصنع مليح عجيب يدعوا الشوق من رآه [56]، كما ذكر ذلك العبدري في رحلته.

إنّ الموقع الإستراتيجي الهام لمليانة، وازدهار زراعتها وصناعتها وتجارتها، جعلها من أهم مدن المغرب الأوسط خلال العهد الإسلامي، حيث رغبت العديد من السلطات السياسية السيطرة عليها باعتبارها طريق مهم يربط بين مختلف المناطق(منطقة عبور)، لذلك ظهرت في الأفق مجموعة من الحروب، وأبرز مثال على ذلك: الحروب التي وقعت بين الموحدين من جهة وابن غانية من جهة أخرى، فبعد سقوط دولة المرابطين، نهض علي بن إسحاق بن علي صاحب الجزر الشرقية المناهضة للموحدين، ونقل المعارك

للمغرب الأوسط، فاستولى على بجاية والجزائر وملیانة، وتوقف هناك لعدة أسباب قيل لعدم انضمام قبائل ملیانة لصفوفه، وقيل أن السلطان الموحدي أبا يوسف غادر الأندلس لمحاربة بني غانية، فأرسل السلطان الموحدي جيشا لمطاردة ابن غانية، الذي ثار عليه أهل ملیانة وخرجوا على طاعته وبايعوا الموحدين[57] .

ولما سقطت دولة الموحدين أصبح المغرب الأوسط من تلمسان حتى بجاية تحت سلطان الحفصيين وأميرهم أبو زكرياء، وكتب الجغرافيا لا تمدنا بمعلومات حول هذا الموضوع، لكن بعض المصادر التاريخية غطت ذلك كابن خلدون في كتاب العبر، فيذكر ظهور أحد شخصيات ومشائخ ملیانة وهو أبو العباس المليانى، وكان له ابن اسمه أبو علي يرغب في الرياسة، في ظل الفراغ السياسي الموجود بالمنطقة فقام بخلع طاعة الحفصيين ونبذ دعوتهم ودعا بالسلطان لنفسه، ولما وصل الخبر لأمير الحفصيين، سرّح إليه جيشا بقيادة الأمير أبا حفص سنة (659هـ/1260مـ) توجه نحو ملیانة فحاصرها، الأمر الذي اضطر أبو علي المليانى للفرار نحو المغرب الأقصى، ودخل الحفصيون ملیانة فارضين سلطانهم، وعقدوا عليها لابن منديل أمير مغراوة[58] .

هذا إضافة إلى الحروب التي نشبت بين المرينيين والزيانيين والحفصيين بسبب أهمية المدينة، فبعد تغلب يغمراسن بن زيان على المغرب الأوسط، زاحم بعض القبائل البربرية كبني توجين وبني منديل، فهؤلاء استغاثوا بالحفصيين، فنهض أبو زكرياء الحفصي وغزا تلمسان وتوقف بملیانة وعقد للعباس بن منديل على مغراوة[59]، ثم انتفض أهل ملیانة على الحفصيين وتغلب عليها الزيانيون[60]، ثم عادت للمرينيين لما نهض يوسف بن يعقوب المريني إلى تلمسان سنة (698هـ/1298مـ) وحاصرها، وبعث جيشا فتح به ملیانة وتنس ومازونة سنة (699هـ/1299مـ)[61]، وأخيرا عادت للزيانيين بعد وفاة يوسف بن يعقوب سنة (706هـ/1307مـ) فقام خليفته أبي ثابت بعقد السلم مع أبي زيان بن

عثمان الزياني على أن يخلي له بني مرين جميع ما ملكوه من أمصارهم[62]، ولما ضعف الزيانيون في القرن (09هـ/15مـ) انفصلت مليانة عنهم وانضمت إلى سلطة أمير تنس المتكونة من مليانة والمدية وتنس، هذه الأخيرة – إمارة تنس- سرعان ما انتهت لصالح تلمسان[63]، واستمر ذلك إلى غاية دخول العثمانيين وبسطوا نفوذهم عليها وفرضوا على أهلها الضرائب[64] .

06- واقع الحياة العلمية بالمدينة:

إنّ ما يلاحظ أيضا على كتب الجغرافيا والرحلات التي ذكرت مليانة عدم تطرقها للحياة العلمية بالمدينة، باستثناء ما ذكره الحميري عن أحد شعرائها البارزين أبو بكر ابن الصابوني الشاعر الذي لقيه سلطان الحفصيين أبو زكرياء، وطلب منه أن ينشد قصيدته المشهورة، فأنشدها وأنعم عليه بخمسمائة دينار [65]، وما ذكره العبدري عن جامعها باعتبار الجوامع آنذاك كانت تؤدي مهمة علمية تعليمية تربوية " ...وبها جامع متقن الصنع مليح عجيب..."[66].

وفي غياب ذكر الحياة العلمية في كتب الرحلات والجغرافيا، قدمت بعض كتب التراجم والتاريخ تراجم لأبرز علماء المدينة الذين برزوا في الفقه والأصول والأدب، والحديث، والتصوف، ومن خلال تلك التراجم نفهم أن مليانة كانت بلد العلم والعلماء خلال العصر الوسيط خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين القرن (07-10هـ/13-16م)، لذلك سنحاول ذكر بعض من علمائها خلال هذه الفترة.

فمن أبرز علماء المدينة على الإطلاق أبو العباس الملياني (ت715هـ/1315مـ) الذي ذكر في كتاب العبر وهو:" من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده"[67]، شاعر وكاتب، ارتحل للمغرب الأقصى بمدينة أغمات ومراكش، استعمله السلطان المريني يوسف بن يعقوب على جباية الأموال [68] توفي بغرناطة

يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشرة وسبعمائة دفن بجبانة باب إلبيرة"[69].

ومنهم أيضا: أحمد بن عثمان بن عبد الجبار المتوسي الملياني (644هـ/1246مـ) فقيه مجتهد، أخذ عن شيوخ بلده، ثم رحل إلى المشرق، ولقي جماعة من الأعلام، وعاد وسكن بجاية، توفي بمليانة، له تقييد على كتاب التلقين للغمام محمد بن علي بن عمر المازري المتوفى سنة (536هـ/1141م)[70] .

إضافة إلى العالم النحوي سعيد بن محمد بن سعيد الملياني من أعيان المالكية رحل من بلده إلى القاهرة سنة (720هـ/1320مـ) وسمع بها من جماعة وأخذ عن أبي حيان وتحول إلى دمشق وتصدر بها لإقراء العربية إلى أن مات في 06 شوال [71].

أما في الفقه المالكي فبرز منهم سليمان بن يوسف الملياني، محدث فيقه ملكي، مشارك في عدة علوم، رحل إلى المشرق ودخل بغداد، ولقي جماعة من العلماء [72].

وفي الأصول علي بن عمران بن موسى الملياني، المعروف بابن أساطير فقيه وأصولي، كان له معرفة بأصول الدين، وكان متصوفا، وهو من أهل مليانة، وسكن بجاية، وتوفي بها سنة (670هـ/1271مـ)[73]، وغيرهم كثر.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة يمكننا الخروج بالنتائج التالية:

- تعتبر كتب الجغرافيا والرحلات من أهم المصادر المعتمدة في الكتابة عن تاريخ ومجتمعات المدن الجزائرية خلال العصور الوسطى وما سبقها.

- إن المعلومات الموجودة في هذه الكتب لا نجده في كتب أخرى، رغم أنها أغفلت الكثير حول مدن الجزائر في العصر الوسيط.

- تعتبر الدراسات الحضرية من أهم حقول الدراسات التاريخية التي من شأنها نفض الغبار عن تاريخ وتراث مدننا العريقة.

- تعتبر مدينة مليانة من أهم مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، فموقعها الجغرافي الحصين والممتاز أعطاها أهمية إستراتيجية، تصارعت حولها الكيانات السياسية لجعلها قاعدة عسكرية تحميها من الغارات المعادية.

- تعددت الأجناس البشرية في المدينة بين بربر وعرب تعايشوا جنبا إلى جنب.

- توفر مدينة مليانة على مؤهلات زراعية خاصة مصادر المياه، جعلها من أبرز مراكز التجمعات السكنية خلال العصر الوسيط.

- نشطت الزراعة والصناعة والتجارة في المدينة، حيث كانت المنتجات وفيرة وغزيرة وجيدة أنشئت لها العديد من الأسواق.

- يمكن اعتبار مليانة حاضرة علمية خاصة خلال العهد الزياني، حيث كثر فيها العلماء في مختلف أصناف العلوم.

الهوامش:

[1]- يقال الرُحلة والرَحلة والرحلة، اسم للارتحال والمسير، وقال بعضهم: الرحلة، الارتحال، والرحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، مثل قولك: أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم، ويقال رجل مرحل أي له رواحل كثيرة والرَحيل القوي على الارتحال والسير، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ، ج17، ص 1609 -1611.

[2]- مبارك بشير، المدارس التعليمية بالمغرب الأوسط على العهد الزياني (633-962هـ/1235-1554مـ)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف الدكتور عبيد بوداود، جامعة معسكر، 2010-2011، ص 55.

[3]- صالح بن قربة وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007مـ، ص 227.

[4]- صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص 207 ،208.

[5]- ياقوت الحموي الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،1977، المجلد الخامس، ص 196.

[6]- الحسن الوزان بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983م، ج 02، ص 34، 35.

[7]- أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص، 118، 119.

[8]- أحمد سليماني، المرجع السابق، ص 119.

[9]- عبد الرحمن الجلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر – المدية – مليانة، منشورات وزارة الثقافة، 2005مـ، الطبعة الثانية، ص 292- 296.

[10]- عبد الرحمن الجلالي، المرجع السابق، ص 296.

[11]- حاليا تبعد عن الأصنام بـ 99 كلم وعن العاصمة بـ 120كلم تبلغ مساحتها حوالي 23772 هكتار، تحيط بها مجموعة من الجبال كجبال زكار الغربي والشرقي، تطل من الشرق والجنوب على واد شلف، وتشرف على سهول الشلف الواسعة، ترتفع بـ 720 متر عن سطح البحر، وحولها الحدائق والبساتين الناضرة، وفيها الأشجار الباسقة، والمياه الدافقة، ويحيط بمليانة سور جدّده الفرنسيون على أنقاض السور العربي والسور التركي، - عبد الرحمن الجلالي، المرجع السابق، ص 297 – ينظر: أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر "تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية السياسية وعناصر سكانها ومدنها

ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والاجتماعية، المطبعة العربية، دون تاريخ، ص 240.

[12]- ودان بوغفالة، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 90.

[13]- هذا الإقليم يمتد على طول نحو 50 ميلا من الشرق إلى الغرب وعلى عرض يقارب 25 ميلا جنوبه كله سهول، وشملا كلها مرتفعات، "ينقسم سكانه إلى قسمين أهل المرتفعات يسكنون دورا لائقة ويزرعون الحقول والكروم، وسكان السهول، هم أشرف بكثير، يقيمون في البداية، ويعيشون تحت الخيام، معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال"، يشمل هذا الإقليم عدة مدن منها البطحاء. - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 26 ،27.

[14]- أبي عبيد البكري ت (487هـ/1094 مـ)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص 69.

[15]- العبدري محمد البلنسي ت (720هـ/1320مـ)، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007مـ، ص 46- 48.

[16]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 34، 35.

[17]- البكري، المصدر السابق، ص 69.

[18]- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984مـ، الطبعة الثانية، ص 138.

[19]- ياقوت الحموي المصدر السابق، ص 196.

[20]- الإدريسي الشريف، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1832م، ص 87.

[21] - الإدريسي المصدر السابق، ص 84 - الحميري، المصدر السابق، ص 223.

[22]- ابن حوقل أبي القاسم، كتاب المسالك والممالك، طبع بمطبع لندن المحروسة، 1873 مـ، ص 89.

[23]- الحميري، المصدر السابق، ص 547.

[24] - مدينة تاعرت كانت فيما سلفت من الزمان مدينتان كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة، القديمة بها صنائع وأسواق، وهنا لا ندري هل يقصد تاهرت باعتبار تاهرت مدينتان تقدمت القديمة وتاهرت المحدثة، الإدريسي، المصدر السابق، ص 87.

[25]- المصدر نفسه، ص 85.

[26]- أبي عبيد البكري، المصدر السابق، ص 61.

[27]- الحميري، المصدر السابق، ص 280.

[28]-المصدر نفسه، ص 547.

[29]- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 196.
[30]- البكري، المصدر السابق، ص 69 -صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 258.
[31] - مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1963مـ، ج 02، ص 177.
[32]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 85.
[33]- مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الوسط، دار المكية الجزائر 2007مـ، صدرت هذه الطبعة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ج 01 ص 121.
[34]- مبارك الميلي المرجع السابق، ص 174، 175.
[35]- ابن خلدون عبد الرحمن (732-808هـ/1332-1406 مـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الهوامش والفهارس خليل شحادة، مراجعة الدمتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000مـ، ج 06، ص- 421.
[36] - مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 175.
[37] - المرجع نفسه، ص 165.
[38] - المرجع نفسه، ص 166.
[39] - ياقوت الحموي المصدر السابق، ص 196 – البكري، المصدر السابق، ص 69.
[40] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 89.
[41]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 34، 35
[42] - صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص 217
[43] - البكري، المصدر السابق، ص 61.
[44] - الإدريسي، المصدر السابق، ص 85.
[45]- الحميري المصدر السابق -، ص 135.
[46]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 34، 35.
[47]- المصدر نفسه.
[48] - مختار حساني، المرجع السابق ص 122، 123.
[49] - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 35،34.
[50] - الحميري، المصدر السابق، ص 547.
[51] - مختار حساني، المرجع السابق، ص 129.
[52] - الحميري، المصدر السابق، ص 280.
[53] - صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص 217. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90.
[54]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 85.
[55] - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 35.

[56] - العبدري، المصدر السابق، ص48.
[57] - عبد الرحمن الجلالي، المرجع السابق، ص 302،301.
[58]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 421،420.
[59]- عبد الرحمن الجلالي، المرجع السابق، ص 302.
[60]- المرجع نفسه، ص 304.
[61]- المرجع نفسه، ص 305.
[62]- المرجع نفسه.
[63]- ودان بوغفالة، المرجع السابق، ص 93.
[64]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 35.
[65]- الحميري، المصدر السابق، ص 547.
[66]- العبدري، المصدر السابق، ص48.
[67]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 420، 421.
[68] - المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1928 مـ، المجلد السادس، ص 266، 267
[69]- المقري، المصدر السابق، ص 268.
[70] - عادل نويهض، معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، 1980، ص314.
[71] -المرجع نفسه، ص 316.
[72] - المرجع نفسه.
[73] - المرجع نفسه.

قائمة المصادر والمراجع

- أ- المصادر:

01- ابن حوقل أبي القاسم، كتاب المسالك والممالك، طبع بمطبع لندن المحروسة، 1873.
02- ابن خلدون عبد الرحمن (732-808هـ/1332-1406 مـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الهوامش والفهارس خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000 مـ، ج 06.
03- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دون تاريخ.

04- أبي عبيد البكري توفي (487هـ/1094مـ)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ج17.
05- الإدريسي الشريف، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1832 م.
06- الحسن الوزان بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983 مـ، ج 02.
07- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984 مـ.
08- العبدري محمد البلنسي توفي (720هـ/1320مـ)، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007 مـ.
09- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1928 مـ، المجلد السادس.
10- ياقوت الحموي الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت،1977، المجلد الخامس.

- ب - <u>المراجع</u>:

01- الجلالي عبد الرحمن، تاريخ المدن الثلاث الجزائر – المدية – مليانة، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، 2005 مـ.
02- المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر "تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية السياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها وجالسها وحالتها الاقتصادية والاجتماعية، المطبعة العربية، دون تاريخ.
03- الميلي مبارك بن محمد الهلالي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1963مـ، ج 02.

04- بشير مبارك، المدارس التعليمية بالمغرب الأوسط على العهد الزياني (633-962هـ/1235-1554مـ)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف الدكتور عبيد بوداود، جامعة معسكر، 2010-2011.
05- بن قربة صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007مـ.
06- بوغفالة ودان، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
07- حساني مختار، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الوسط، دار المكية الجزائر 2007 مـ.
08- سليماني أحمد، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007مـ، ج 01.
09- قيقانو أنطون بشارة، جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية، دار المشرق بيروت، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.
10- نويهض عادل، معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، 1980 م.